الفصل الثاني عشر

وثنيون في ميراثك

في تشرين الثاني/ نوفمبر سنة 1187م ركب يوشع أسقف صور مسرعاً سفينةً من مرفأ تلك المدينة المشرقية، وأبحر باتجاه صقلية. ولكي تتلاءم السفينةُ مع وضعه الكئيب فقد كانت الأشرعة والجوانب مطليةً بالأسود. وما كان واثقاً أنه سيجد عند عودته الشاطئَ بأيدي المسيحيين أم بيد صلاح الدِّين. وذلك لأنّ صور كانت الحصن الوحيدَ الباقيَ في المنطقة بعد أن أُخذت سائر حصون المملكة اللاتينية التي أنشأتها أَو استولت عليها القوات الصليبية في الحرب الصليبية الأولى قبل مائة سنة. كانت صور ما تزال صامدةً في وجه هجمات الكفار بسبب دفاعاتها القوية وقيادتها الحازمة. لكنْ لا أحد يعرف كم تستطيعُ المدينةُ الاستمرار. وإلىٰ جانب ذكرياته ومشاهداته التي تصف الأهوالَ التي لقيها الصليبيّون، كان الأسقف يحمل معه تمثالاً صغيراً للمسيح يسيلُ الدمُ على وجهه بعد أن ضربه أحد العرب: «هذا هو المسيح، ضرب محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم نبي المسلمين وجهه، بحيث جرحه وقتله» . ثم إنه حمل رسالةً من مقدم فرسان الهيكل جيرار دو ريدفور، الذي ما كان ليعيش لولا تسامُحُ السلطان. وتقول رسالة دو ريدفور الشاكية أنه يحمل أخباراً إلىٰ العالم المسيحي تُرعبُ الشمس والقمر: «كم هي المصائب والمحن التي سيضربنا

الرب بها، وكم تتطلب خطايانا. إنّ غضب الرب علينا هو الذي سمح بضربنا. وما عدنا قادرين، يا لغرابة المصير، على التعبير عما حدث لنا بالكلام أو بالكتابة..». ثم ذكر تفاصيل عن هؤلاء المسلمين الذين بعدد النمل. ثم وجَّهَ نداءَهُ: «أسرعوا بقدر ما تستطيعون لتجلبوا بعض العزاء والصمود لنا وللمسيحية. كل شيءٍ دمّر في الشرق. لكنْ بفضل الله، وفضائل محبتكم ومساعدتكم يمكن أن نستعيد بعض ما فقدناه، ونتشبَّث بما هو موجودٌ لدينا ودائم». لقد بدأت الفكرة تظهر وتثبُت، وهي القائلة إنّ انتصارات صلاح الدِّين ليست ناجمةً عن قوته وضعف الآخرين، بل إنّها بسبب ذنوب المسيحيين وانحطاطهم. لقد صار ثابتاً أنّ المسيحيين كانوا ينتصرون حتى عندما يكون العدو أكثر عدداً منهم، وبخاصةٍ عندما يكون معهم الصليب الأعظم. لكنّ الله سمح الآن بأن ننهزم، وأن ينتصر المسلمون. وهكذا فإنّ ذنوب المسيحيين هي التي تسبّبت، وجعلت من صلاح الدِّين الأداة الإلهية لذلك. فرب المسيحيين استخدم الكفار ليعلِّم المؤمنين درساً. ومع ذلك فإنه في الوقت الذي كانت فيه قصة ذنوب المسيحيين التي تسببت في الهزائم تتعاظم، ظهرت قصةٌ أُخرى مناقضة. فقد أتى مهرِّج البلاط إلى صلاح الدين بعد وقعة حطين؛ وقال له: حكم الله على المسيحيين بالهزيمة من أجل التكفير عن جرائمهم، ثم إنه اختارك أنت أيها الأمير لإنفاذ المهمة. بيد أنّ الأب الدنيوي الذي يريد أن يؤدب أولاده، يستخدم عصاً قذرةً من أجل ذلك، ثم يعيد رميها في النفايات. يا لأسى للمهرج الصغير. فما كان هناك طبعاً مهرِّجٌ ولا مَنْ يحزنون في بلاط صلاح الدِّين. وحتى لو كان في بلاطه شيءٌ من ذلك ما كان ليرتكب خطأ الاستماع إليه. ومع ذلك فإنّ القصة وجدت مستمعين ومصدِّقين في أوروبا.

وصل الأسقف يوشع إِلىٰ سواحل صقلية أوائل كانون الأول/ ديسمبر؛ جالباً معه الأخبار التي أذهلت البرابرة. الملك النورماندي وليم الثاني أُصيب بصدمة نتيجة تلك الأخبار إِلىٰ حدّ أنه اعتزل في غرفته أربعة أيامٍ لا يكلِّمُ أحداً.

وفي اليوم الخامس عاد الملك إلىٰ مجلسه معلناً عزمه على الكتابة إلىٰ كل الأمراء الأوروبيين داعياً لحرب صليبيةٍ جديدة؛ وعلى لسانه المزمور التاسع والسبعون، يقول: «أيها الرب، إله الجنود، إلىٰ متى تسخط على صلاة شعبك. لقد أطعمتَهم خبز الدمع وأسقيتَهم العَبَرات سِجالاً جعلتنا نزاعاً لجيراننا واستهزأ بنا أعداؤنا. . يا إله الجنود أرجِعْنا وأنِرْ بوجهكَ علينا فنخلُص». أما في روما فكانت الصدمة أشدَّ هَولاً. البابا أوربان الثالث كان قد مات قبل أيام قليلة على وصول الأسقف يوشع؛ وكان الفاتيكان في ارتباكٍ انتخاب البابا الجديد. وجاء البابا الجديد واسمه غريغوري الثامن. ومع أنّ البابا الجديد كان كَسيرَ القلب، فإنه رفع صوتَه بنداء الحرب المقدَّسة بحماسٍ وشدة. إنّ على العالم المسيحي أن يتحمّل بعضاً من المسؤولية عن ضياع القدس. فلا شكَّ أنّ فقد القدس، والصليب الأعظم، جاء نتيجة تجاهل العالَم المسيحي لمراسيم البابوات وعظاتهم ومناشيرهم من قبل. فالأُمراءُ المسيحيون فضَّلوا حروبَهم الصغيرة على دعوة المخلّص. وضع غريغوري عقله وروحه في هذه الدعوة: «كل شخص عادي، يستطيع أن يدرك هَول الأخطار وفظاعتها، كما يستطيع أن يقدّر قسوة البرابرة المتعطشين لدماء المسيحيين. وإنّ هدف أولئك الذين انتهكوا حرمة الأماكن المقدَّسة ليس أقلّ من مسح اسم الله من على وجه الأرض». والرجال النبلاء الذين تأخذ بمجامع قلوبهم وأرواحهم محاولات إنقاذ القدس، يستطيعون أن يأمُلُوا طبعاً مغفرةً للذنوب، ورضواناً من الله والكنيسة في الحياة الأبدية.

مضى البابا غريغوري بندائه العاصف إلىٰ بيزا وجنوا، القوتين البحريتين الكبيرتين في المتوسط، لكي يدفعهما للتصالح من جهة، ولكي يكسب دعمهما في الحملة الصليبية الجديدة. بيد أنّ البابا الضعيف الجسد، الذي أرهقه الترحال ما لبث أن توفي بعد شهرين على تنصيبه، وخَلَفه في المنصب كليمنت الثالث. وتسلّم البابا الجديد أيضاً مسألة الحرب الصليبية بحماس. وعاد

لمطالبة أمراء أوروبا بترك خلافاتهم، والاستجابة لنداء المسيح. وركّز الفاتيكان على إنكلترا لأنها كانت أغنى ممالك أوروبا وأكثرها قوة. وطلب البابا من المطارنة البريطانيين حَمْلَ المسألة بجدٍ لإنقاذ المسيحية التي تتهددها «مؤامرة أبناء إسماعيل». وطلب كليمنت من يوشع أن يذهب إلىٰ جيسور Gisors حيث كان من المقرَّر أن يلتقي فيها ملكا فرنسا وإنكلترا في ربيع سنة 1188م فيستطيع الأسقف أن يوجّه إليهما نداءً شخصياً. وعندما سمع الأمير ريتشارد دوق أكيتان، والملك المقبل للإنجلترا نداءَ الحرب المقدَّسة، خرَّ راكعاً وأخذ الصليب في كانون الأول/ ديسمبر 1187م؛ فكان بذلك أولَ أميرٍ مسيحيٍ يستجيب النداء.

في 21 كانون الثاني/ يناير 1188م التقى هنري وفيليب ثانيةً تحت شجرة الدردار في جيسور. وبقي ريتشارد في جنوب فرنسا، لكنّ الملكين سمعا هناك الآثار التي خلّفتها أخبار المشرق المزعجة على المَلَكيات الأوروبية. استمع الملكان إلىٰ الأسقف يوشع يحدثهما عن خسارة الأرض المقدَّسة. وكان غضبه ويأسه كبيرين. وهذه المشاعر العميقة المتلاطمة هي التي أفضت لاحقاً إلىٰ أنشودة: «جيروسالم في الريح»: «جيروسالم في الغبار والريح. ضع رماداً على رأسك. ضعه في غرفتك. هناك في المكان الذي تتأسس فيه دعائم الأمل. فأعمال الخير تفتقر إلىٰ الراية والإيثار. في قلب جيروسالم تُرضع الذئاب الكلاب. إنهم يهدمون أحجار البيت المقدس، ويحولونها إلىٰ سوق. والمصريون يدمّرون ما عمله العبرانيّون».

عندما كان الملكان يستمعان إلىٰ نداء الأسقف يوشع عادا للركوع والقَسَم وأخذ الصليب. وجرى الاتفاق على أن يحمل الفرنسيون في الحرب على صدورهم صلباناً حمراً والإنجليز صلباناً بيضاً والفلمنكيين صلباناً خضراً. كما تعهد الملكان بأن يذهبا للحرب خلال عام. وفي ذلك الاجتماع جرت الموافقة على «ضريبة صلاح الدِّين» التي طُبّقت في إنكلترا وفرنسا. وبدا للوهلة الأولى

أنّ البابوية نجحت مرةً أخرى في إشعال حربٍ صليبية. فقد كان مفيداً الآن كما في الماضي صرف الأمراء والنبلاء الصغار عن نزاعاتهم. والعدو الواحد يمكن أن يوحد كلمتهم في سبيل المسيح. فضلاً عن أنّ ذلك يمنح الأمراء والنبلاء الفرصة لاستعمال حبهم للفروسية في منحى إيجابي. ولأنّ هنري الثاني كان قد صار عجوزاً ومتعباً من النزاعات الداخلية، فقد كان مزاجه ملائماً أيضاً لتلك الحرب. وهكذا استطاع الوصول مع فيليب ومستشاريه إلىٰ حلٍ في قضية فاكسن Vexin. فحصن جيسور وما حوله سيكونان مهراً للأخت غير الشقيقة لفيليب، أليس، التي خُطبت لريتشارد سنة 1161م عندما كان ما يزال في الرابعة من عُمُره. وطالب فيليب من جديد بإتمام الزواج. بيد أنّ الروح المتسامية لحرب الثأر المقدَّسة لم تستمر أكثر من عدة أيامٍ بعد اجتماع جيسور في 21 كانون الثاني/ يناير 1188م. فقد عادت سائر الأطراف إلىٰ نزاعاتها. فإقدام هنري على أخذ الصليب كان المقصود به التخلص من ابنه، ولم يكن في نيته الذهاب للديار المقدَّسة بنفسه. وقد رأى أنه أعطى ما فيه الكفاية للحرب المقدَّسة من خلال المبالغ المالية الضخمة التي يدفعُها جزاءَ قتله لتوماس بيكيت. هكذا عاد هنري الثاني إلىٰ إنكلترا، إلىٰ ذراعي أليس، لكنه ما يزال يحنُّ للسيطرة على فاكسن التي حصل عليها فيليب في أسكرو Escrow مهراً لأليس التي ينبغي أن تتزوج من ريتشارد كما قيل منذ زمن. وفي تموز/ يوليو انفجر نزاعٌ علنيٌّ أطلقه هنري، مع بوادر هرطقة دينيةٍ أيضاً: لماذا يكون عليَّ أن أعبد المسيح؟ ولماذا يكون عليَّ أن أُبجّله في حين مكَّنَ صبياً من الاحتيال عليّ؟ وفي شهر آب/ أغسطس عاد الملوك إلىٰ دردارة جيسور للتفاوض، لكنّ السيوف ما لبثت أن شُهرت. ففي نوبة غضب أمر فيليب بقطع الدردارة. وعندما رآها هنري مقطوعة، أعلن الحرب. لكنه ما عاد يملك القلب أَو النشاط للقتال. وطلبت منه روما الإقبال على التصالح فعاد للاجتماع بفيليب في تشرين الثاني/ نوفمبر، وهناك صُدم برؤية الحميمية التي بين فيليب وابنه ريتشارد، مما يُثبت الشائعات

حول شذوذه الجنسي. وهناك أيضاً طالب ريتشارد من جديد بأن يكون ولياً للعهد، وهناك رفض هنري أيضاً مطلبه. وأزعج الانقسام الجديد روما، فأرسلت مبعوثين لتنبيه المتخاصمين إلىٰ الخطر الماثل في الشرق، والذي ينبغي الانتباه إليه. وما أثمرت مساعي البابا لأول وهلة. ففيليب زعم أنّ البابا مهتمٌ بالسلام، لأنه شم رائحة المال الإنكليزي. وريتشارد سلَّ سيفه على المبعوث البابوي وهو في حالةٍ من الغضب الشديد. وبعد ستة أشهر على هذا الحدث، كان فيليب وريتشارد يشنان حملةً مشتركة على هنري الثاني. حاصر الرجلان الملك هنري في Le Mans مدينة مولده وأحرقاها، وقد لام هنري ابنه على هذا الفعل الشنيع وليس الملك الفرنسي: «لقد أحرقتَ بقسوةٍ المدينةَ التي أُحبّ، والتي فيها قبر والدي. لقد حرمْتني من أعزّ ما أملك، وسوف أعمل على حرمانك من أعزّ ما تُحب». ومضى ريتشارد وراء أبيه هنري مُريداً قتله، فتصدَّى له معلّمه في الفروسية وليام مارشال لتبطئته، وكاد يقتله في كمين: لا تقتلني يا مارشال فأنا لستُ مسلحاً! وأجاب مارشال: أرجو أن يقتلك الشيطان، أما أنا فلا! وما مضت أشهر حتى اشتدَّ المرض والشيخوخة بهنري، واضطُرّ في أيامه الأخيرة إلىٰ إعلان ابنه ريتشارد وارثاً للعرش، وإطلاق سراح إليانور امرأته، وترك أليس ليتزوجَها ريتشارد بعد عودته من الأرض المقدَّسة، كما أنَّه تخلَّى عن Vexin لفيليب بعد أن خسر عدة قلاع. وأقبل ريتشارد على سرير والده تائباً ومستغفراً ونادماً على حروبه ضدّه؛ والتمس منه العفو والمغفرة، لكنّ الوالدَ أقفل كلَّ بابٍ للتسامح وقال: ليوفقْني الله بحيث لا أموت إلاَّ بعد أن أنتقم منك! بيد أنّ هنري لم يستطع الانتقام، فقد حُمل إلىٰ Chinos حيث توفي بعد أيامٍ قليلةٍ، ومن هناك أُخذ جثمانه إلىٰ Fontevrault حيث دُفن في كنيسة Nuns مشيَّعاً من ابنه النادم. وكما يقول المؤرّخ جيرالد أوف ويلز فإنّ الدماء نبعت من جسد الملك في شبه معجزةٍ كأنما ليقول إنّ ابنه ريتشارد قتله.

II

تتويج الأسد

بعد وفاة هنري الثاني ذهب ريتشارد لوقتٍ قصير إلىٰ إنكلترا من أجل احتفال التتويج. وقابله الشعب الإنكليزي بترحابٍ كبيرٍ، وتحدث الشعراء عن الملك الناضج القلب، وإن يكن صغيراً في السن. كما تحدث آخرون عن زهرة الفروسية الذي تأتي كلماته من الحقيقة النابعة من القلب. وعزمت إليانور بعد خروجها من السجن، أن تُعدَّ لابنها بدايةَ مُلكٍ لائقة، فمضت من حصنٍ إلىٰ حصنٍ، ومن حبسٍ إلىٰ حبسٍ، مطلقةً سَرَاحَ السجناء، لما عانته في السجن من قهرٍ ومشقّة. وبذلك استبشر الناسُ بالملك الجديد والعهد الجديد. وأُقيمت احتفالاتُ التنصيب بتاريخ 3 أيلول/ سبتمبر في وستمنستر. وكانت الأجواءُ مملوءةً، بالأمل والتجدد. وهذا ما عبّر عنه شاعر التروبادور برتران دو بورن عندما قال «إنه يحب انتقال المُلْك من ملكٍ إلىٰ ملك، من شيخٍ إلىٰ شاب، ومن عهد إلىٰ عهد». كان الذهب حاضراً في كل مكان: في الشمعدانات، وفي السيوف، وفي الصولجان الملكي، وفي الحِراب. أمّا ختمه الملكي، والذي كان يحمله أخوه جون، فقد كان عليه ثلاثة أسود فوقها تاج، على خلفية حمراء. وحلف الملك ثلاث مراتٍ على صون المملكة، والدفاع عن الكنيسة، وخوض الحرب المقدَّسة. عُرِّي ريتشارد حتى الوسط، حيث مسحه أسقف كنتربري بالزيت المقدَّس، ثم ارتدى ملابسه الملكية، ووضع التاج المرصَّع بالجواهر. وفي الاحتفال اللاحق على التتويج ما حضر غير رجالٍ ضخامٍ عِراض الأكتاف. أما النساء فما كنَّ مدعوات.

ووسط هذا الحشد الهائل من الأمراء واللوردات والبارونات والإيرلات كان حفل «العُزَّاب» جيداً ومفرحاً، لولا أنَّ حادثاً عكّر صفوه. فقد جاء يهوديٌّ

عجوزٌ حاملاً هدايا للملك، فأُخذ من على الباب وطُرد وسلبت هداياه، وفاجأهُ نشيدٌ مُعادٍ لليهود:

هذا الذي يخلّص من الذنوب
أتى بسويةٍ مستقيمةٍ من الأب
ليشفي جروحَ الإنسانية
اعترف بالرب، أيها اليهودي
لقد مضى القانون القديم إلىٰ غير رجعة
والنظام القديم مضى أيضاً لغير رجعة
وما عادت الشعائر القديمة تنفع في غفران الذنوب
ولا عادت حروف القانون نافعة
يا قلب الشعب الغبي، الأغلظ من الحديد
انظر أمامك وخلفك، ولا تأبه للمُلهيات
إذا أكلتَ القشور فإنّك لن تأبه لقلب الثمرة
ومن الحبوب غير المختارة، لن تنتج خبزاً ممتازاً
كما أنك لا تملأ خابيتك
ثم إنّك تقدر بعض الأشياء أكثر مما تستحق

واستطاع أحد أعضاء الوفد النجاة بحياته وهو بنديكت أوف يورك Benedict of York باعتناق المسيحية في كنيسة الإينوسنت. لكنّ العوامَّ تحركوا إلىٰ الحي اليهودي بلندن، وبدأوا بإحراق كل مساكن اليهود. وما تدخلت السلطات إلاَّ عندما امتدت النيران إلىٰ الممتلكات المسيحية. وفي اليوم التالي لم يُظهر الملك الجديد أيّ تعاطُفٍ مع اليهود، واكتفى بتعليق بعض الذين

أوصلوا النار إلىٰ مساكن المسيحيين. ثم ومن باب الفضول ربما، استدعى المسيحي الجديد إليه، وقال له:

ـ من أنت؟

ـ أنا بنديكت أوف يورك، أحد يهود مملكتك يا سيدي!

ـ ألم تخبروني أنه مسيحي؟ قالها الملك مائلاً على أسقف كنتربري.

ـ نعم، يا مولاي.

ـ أسقف كنتربري: إذا لم يختر أن يكون مسيحياً، فليكن واحداً من عبدة الشيطان!

وفي روايةٍ لهذه القصة، يذكر كاتب سيرة ريتشارد وبطولاته: روجر أوف هوفدن سفر الأمثال رقم 26: «ككلبٍ عائدٍ في قيئه، هكذا الجاهلُ المكرّر سفهه».

ويقال إنّ نزعة العداء للسامية مضت بعيداً بريتشارد قلب الأسد، إلىٰ حدّ أنه كان يتسلّى أحياناً بنزع أسنان بعض اليهود. وفي الشهور اللاحقة اشتد الحماس للحرب الصليبية والذهاب للقدس، وفي الوقت نفسه العداءُ لليهود واضطهادهم، ولم يفعل ريتشارد شيئاً ضدَّ ذلك، باستثناء رسالةٍ جرى تجاهُلُها من جانب أتباعه، بعد مغادرته بريطانيا إلىٰ الأرض المقدَّسة. وحدثت هجماتٌ أخرى على اليهود في يورك ونورويتش، إلى حدّ أن معلّقاً قال: «إن هناك كثيرين ممن يسرعون إلى القدس، ربما كانوا يريدون أولاً ضرب اليهود». قد بلغ الاضطهاد مدىً في يورك York أدى بالمسيحيين هناك قبل عيد الفصح سنة 1190م إلىٰ القبض على بضع مئاتٍ من اليهود ووضعهم في السجن، حيث قيل إنهم انتحروا؛ وربما كان بين المنتحرين بنديكت أيضاً. وقد ذكر مراسلٌ حربيٌّ اسمه ريتشارد أوف ديفيس Devizes من ونشستر تلك المذبحة، وقال إنّ الذين قاموا بها إنما قصدوا أن يثأروا، وعملهم محمود، وأنه خَجِلٌ لأنّ مدينته لم

تشارك في المذبحة: «في يوم التتويج، وعندما كان الابن يخلُفُ أباه، ضُحّي باليهود لأبيهم، الشيطان. حدث ذلك في لندن. وقلّدت مُدُنٌ أخرى اللندنيين، فأرسلت مصاصي الدماء أولئك إلى الجحيم. وحدها ونشستر ترددت وتكاسلت. فالمدينة ما كانت مستعدةً لقطع دابر الداء الذي يتغلغل في جسمها..».

شارك ريتشارد منذ صغره في تقاليد الفروسية. ويقال إنه نظَّم مبارزاتٍ بعد تتويجه استمرت ثلاثة أيام لاختيار أشجع الفرسان الذين سيرافقونه إلى الشرق. ولأنه هو الوحيد الذي يستطيع اختبار الفرسان، فقد ظهر في ثلاث هيئاتٍ مختلفة. في الهيئة الأولى كانت عدته سوداء.. ثم اختفى في الغابة وعاد فارساً بملابس حمراء.. ليختفي ثانيةً في الغابة ويعود بملابس بيضاء وعلى فرسٍ أبيض. أما الصليب على خوذته فكان حمامةً بيضاء رمزاً للديار المقدسة نفسها. هذه المرة اصطدم الفارس الأبيض بقضيبٍ شائكٍ فسقط مغمىً عليه وحُمل إلى قصره. ولا شكّ أنّ هذا الاتّباع للتقاليد الآرثرية (نسبة للملك آرثر) يعني أن آخر خصمين للملك سيكونان معاونَيه الرئيسيين، فيقسمان له قَسَمَ الولاء والوفاء.

بعد عشرة أشهر وجد الملك نفسه في فيزيلي Vézelay مع جيشه الصليبي في ذلك المكان، وجنباً إلىٰ جنب مع الملك فيليب أغسطس ثانيةً؛ الذي يبدو أنّ مصيره ارتبط به، وكذلك عواطفه، في عُرىً لم تنفصم منذ بداية شبابهما.